الأستاذ : د. محمد بك

جامعة باجي مختار – عنابة –

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية

قسم التاريخ

المستوى : أولى ماستر

المقياس : العلاقات الجزائرية المغاربية والمشرقية

محاضرة الأسبوع الأول شهر ماي2020 م

ركب الحج

تعريف ركب الحج : يعرّف ركب اصطلاحا بأنه جماعة الحجاج الذاهبين إلى مكة المكرمة وبالضرورة العائدين منها لاحقا ، أو قافلة الحجاج من راكبي الإبل وغيرها من الدواب ، الذين يحملون معهم زادهم وأمتعتهم ، أو هو مسير قافلة الحج الحجاج أو الحجيج القاصدين بلاد الحرمين الشريفين مكة والمدينة من أجل أداء وإتمام مناسك الحج المقررة والمعهودة . وهناك من يرى بأن الركب يحمل كذلك معنى الموكب المتكون رأسا من مجموعة قوافل الحج المنطلقة من وطن معين ، وكذا المنضمة اليها أثناء السير والتي تقصد في سفرها الوصول إلى مكة المكرمة لأداء الحج .

وبما أن الذهاب إلى بلاد الحجاز لأداء ركن الحج قد يكون غالبا عن طرق البر، وأحيانا تكون بعض مراحله عن طريق السفن الحاملة للركاب والركبان على حد السواء ، فإنه يمكن القول بأن ركب الحج بمعنى أوسع يشمل القوافل التي تقصد بلاد الحجاز برا وكذا الجماعات التي تركب السفن نحو موانئ مصر وخاصة الإسكندرية ، ومنها تواصل سفرها إلى الحجاز برا أو بحرا في بعض الأجزاء ، بما أن المحطة الأخيرة وهي مكة المكرمة ليست ميناء على البحر وهذا النوع يمكن أن نسميه مجازا بالركب البحري.

لقد تعددت الاشتقاقات التي أطلقها المغاربة على هذه الرحلة الجماعية إلى الحجاز لأداء فريضة الحج فهناك من استعمل ركب الحج أو ركب الحاج أو ركب الحجيج وهناك من وظّف مصطلح الركب النبوي لأن الركب يزور المسجد النبوي أيضا ، بينما فضل آخرون استخدام لفظ ركب الحجاز الذي يشمل الحرمين الشريفين المقصودين بحكم أن القافلة متوجهة لبلاد الحجاز.

وركب الحج في العهد العثماني هو الإطار الرسمي أو الحيز المحمي الذي كان يحرص كل من رغب في أداء مناسك الحج على الانتماء إلى قوافله ومصاحبة أفراده لأن المنقطع عن الركب في رحلة الحج الشاقة الطويلة ، والمسافر من الجزائر إلى بلاد الحجاز بمفرده ما وصل اليها قط سالما الا من عصمه الله وصانه ، لذلك فقد أضحى الركب بمثابة المحلة أو الحامية المتنقلة التي تؤمن الحجاج قدر المستطاع ، وتجعل بعض أمراء

البلدان الواقعة في طريقها يرتابون منها فيتجسسون على الركب ويطوفون به ويختبرونه حتى إذا ما أيقنوا أنه ركب حجاج خلوا سبيله.

دلائل تميّز الركب الجزائري وخصوصيته:

لقد تكرر استخدام لفظ الركب الجزائري أو ركب الجزائر في متون الرحلات الحجازية في الكثير من المواضع ، ونقل الحجاج الرحالون أخباره باستمرار طيلة فترة الحكم العثماني للجزائر من ذلك خبر مفاده أن ركب الجزائر في موسم حج 1653م قد أمن في رحلته في القفار ولم يتعرض لقطاع الطرق ، على خلاف ما حدث في المدن التي مر بها، وذكره الرحالة المغربي العياشي في أكثر من موضع وذلك في موسم حج 1661م مثل قوله " وبعد أن خرجنا منها لقينا ركب الجزائر القافلين من الحجاز ..."

تمكن الركب الجزائري من أن يحافظ على شخصيته واستقلاليته طيلة الرحلة إلى الحج وحتى في المقطع الأخير من طرق الحج أي بين مصر والحجاز ، حيث كانت العادة في ذلك الزمان أن يتقدم الركب المصري ويسود أركاب بلاد المغرب كلها التي كانت ترغب معظمها السفر في النهار بخلاف الركب المصري، لكن الأمور انقلبت تدريجيا وأصبح الركب المصري الضخم يحسب للركب الجزائري ألف حساب.حيث كان حريصا على إبراز مدى هيبته وقوته حماية للحجاج الجزائريين ، وترهيبا للمعتدين ونكاية في أركاب الحج الأخرى المزاحمة له . ورغم وجود شيخ أو وكيل للحجاج المغاربة أجمعين في الحجاز خلال العهد العثماني الا أن الجزائريين كان لهم ممثل خاص هو رئيس طائفة الجزائريين ، وجرت العادة أن في آخر مقطع من مقاطع السفر المسمى درب الحجاز ينطلق الركب المصري ثم تنضم اليه أركاب المغرب فاس تونس الجزائر طرابلس فتتضاعف أعدادهم ويؤلفون ركبا مغاربيا كبيرا لكن كان بالإمكان دائما تمييز بعضها عن بعض سواء في الانطلاق أو أثناء السير.

إن تميّز الركب الجزائري لا يعني أبدا أنه لا يحمل سوى الجزائريين أو أنه يرفض المسير جنبا إلى جنب مع الأركاب المغاربية ، فقد انضم بعض الحجاج من إقليم برقة الليبي وثلاثة حجاج مغربيين إلى الركب الجزائري في أحد المواسم ، في حين التقى بعض الحجاج الجزائريين بركب فزان الليبي في مصر وتعرفوا على حاكم فزان فرحب بهم وآثروا مواصلة السفر معا إلى الحجاز ، وذكر العياشي خبر عالم من المغرب الأقصى :" ولقيت صاحبنا سيدي سحراوي وكان حج معنا ثم قدم قبلنا مع ركب أهل الجزائر..." . كما أن التقاء أركاب المغرب العربي في طريق الحج أمر وارد إذ حدث وأن التقت خمسة أو ستة أركاب دفعة واحدة في مدينة طرابلس الليبية في الذهاب والإياب ، وإن المرحلة الأخيرة بين مصر والحجار يظهر بين أركاب المغاربة عادة التواد والتشاور والاتفاق في أمور كثيرة .

أجزاء الركب الجزائري البري اقليميا:

رغب أن الركب الجزائري يشكل وحدة مترابطة قائمة بذاتها ، إلا أنه في أصله تجمع وتكتل مجموعة من قوافل الحجاج الجزائريين ، من مختلف جهات الايالة الجزائرية ، ويمكن اعتبار تلك القوافل بمثابة أركاب جزئية أو إقليمية وأسمائها تبقى على المستوى المحلي فقط ، كانت تلك الأركاب تنطلق من حواضر الجزائر المعروفة مثل بجاية ، قسنطينة ، الزاب ، الجزائر ، مجاجة ، مازونة ، ونشريس ، تلمسان ، معسكر، توات ، ورجلان

.. وذلك لتسهيل تجميع حجاج الركب وتحفيز الجزائريين على الذهاب إلى حيثما كانوا. أقام الجزائريون على فترات مجموعة من الزوايا والمحطات يجتمع فيها الحجاج بالتدريج الى أن يحين وقت مرور الركب المعتاد فيلتحقون به من كل الجهات المجاورة.

يقول الرحالة الورتلاني عن إحدى تلك المحطات :" وبتنا فيها ثلاث ليال ، ليلحق بنا من بقي من التالي... فمثلا قد اجتمع في ركب جزائري واحد في أحد المواسم حجاج من المناطق والقبائل التالية : قسنطينة ، سطيف ، بجاية ، زواوة ، قصر الطير ، أهل عامر ، أولاد عبد النور ، أولاد سعيد بن سلامة ، أهل بسكرة ، أهل المسيلة ، أهل أمدوكال ، أهل الزاب ، أهل الصحراء ، توات...

وبالتالي فإن تجزئة الركب الجزائري إقليميا إن بدت فإنما تكون في الانطلاق لأجل التشكل ثم يتوحد الركب في محطات الطريق الخارجية ثم تظهر التجزئة مرة أخرى على مشارف الوصول إلى الجزائر في العودة لضرورة الفراق ، فمثلا في موسم حج 1766م ضم الركب عدة إقليم وقبائل لكنه رحل موحدا ثم عاد موحدا وفي الايالة التونسية انقسم إلى ركبين: ركب التل الذي رغب في المرور على مدينة تونس ودخول الجزائر من شرقها وركب الهضاب والصحراء الذي رغب في المرور على مدينة توزر قاعدة يلاد الجريد ودخول الجزائر من جهة الجنوب الشرقي.

ركب الحج البحري: ويقصد به جماعات الحجاج التي تسافر عبر البحر ممتطية السفن الشراعية ذائعة الصيت وقتئذ ، على أن الركب البحري لا يمكن قطع صلته بالركب البري فرحلة الحج من الجزائر قد تبدأ برا ثم تؤول إلى البحر والعكس صحيح. وعندما تكون السفن جاهزة للإبحار نحو ميناء الإسكندرية ينادي المنادي في مدينة الجزائر معلنا ميعاد إقلاعها فينتهز كل من نوى الحج في ذلك العام الفرصة بسعادة للسفر بحرا . وكانت الجزائر تلجأ عادة إلى كراء السفن الأوروبية ذات الأحجام الكبيرة التي تصلح لنقل الحجاج الجزائريين فمثلا في سنة 1685 تم استئجار سفينة هولندية لحمل الحجاج من العامة والمسؤولين الأتراك ، وكان الحجاج أيضا يقصدون ميناء حلق الوادي بتونس للسفر بحرا.

دور ركب الحج الجزائري في التواصل الثقافي:

المزاوجة بين الحج والنشاط العلمي: مثلت الرحلة لطلب العلم في ذلك الزمان أحد البدائل التي أوجدها الجزائريون لتعويض تقصير الحكام العثمانيين الثقافي ، فأضحت بذلك مفخرة لصاحبها لذا حرص الجزائريون على إقرانها برحلة الحج ، ولا تكاد تطلع على تراجم وسير الأعلام من الجزائريين في ذلك الزمان إلا قابلتك العبارات مثل :"رحل إلى المشرق وحج" أو "أخذ عن علماء مصر والشام والحرمين" أو" أخذ عنه جماعة من علماء المغرب والمشرق" .

في الديار المصرية كان الحجاج يقصدون مواطن العلم والتدريس ويزاحمون طلبتها والطلبة الوافدين عليها من مختلف البلدان بالركب، أما بلاد الحرمين الشريفين فكانت معاهد مفتوحة أمام الحجاج تفد عليها اكتب والمؤلفات وتتبادل فيها الرسائل والإجازات ، وما يحيط بركب الحج من نشاط علمي يشمل رحلة الإياب كما الذهاب والبلدات الصغيرة كما المدن الكبيرة يقول الرحالة الورتلاني عن ذلك :" ...وفي الرجعة اجتمعنا بهذه

البلدة مع علماء الوقت كالفقيه الأديب سيدي سالم وإخوانه وطلبته ، وقد عمّر أوقاته بتدريس العلم نحوا وفقها ".

لا تكاد تخلو معظم مواسم سفر الركب الجزائري إلى الحج من نماذج لحجاج جزائريين أعلام اشتهروا بنبوغهم وفرضوا أنفسهم ومكانتهم في أقاليم المشرق الإسلامي نذكر منهم: علي ولي بن حمزة الجزائري ، أحمد المقري التلمساني ، عيسى الثعالبي ، يحي الشاوي ، عبد العزيز التواتي ، عبد الرحمن الجنتوري ، محمد المنور التلمساني ، محمد البليدي ، عبد الرحمن التنلاني ، الحسين الورثلاني ، أبو العباس الصحراوي ، أحمد بن عمار، أبوراس الناصري، علي الميلي المغربي ...